اللغاتُ الواردةُ في غريب الحديث لابن قتيبة: دراسة لغوية تحليلية

Dialectal Variants in Ibn Qutaybah's Gharib Al-Hadith: A Linguistic Analytical Study

أ. **عبد الله عبد العزيز صلاح الدين:** باحث دكتوراه في قسم اللغويات، كلية اللغة العربية والدراسات الإنسانية، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.

Mr. Muhammad Jamilu Abdussalam: PhD researcher in the Department of Linguistics, Faculty of Arabic Language and Humanities, Islamic University of Medina, Kingdom of Saudi Arabia.

Email: abuhanan1@yahoo.co.uk

DOI: https://doi.org/10.56989/benkj.v5i8.1564

تاريخ الاستلام: 2025-06-13 تاريخ القبول: 2025-06-27 تاريخ النشر 2025-08-01

الملخص:

يقدم هذا البحث دراسة لغوية تحليلية للهجات العربية المختلفة التي وردت في كتاب "غريب الحديث" لابن قتيبة، حيث تم التركيز على استكشاف الظواهر الصوتية، والصرفية، والدلالية، واللهجية التي ظهرت في الألفاظ التي أشار إليها المؤلف بوجود "لغة أخرى". اتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي بهدف الكشف عن أنماط التغيرات الصوتية والدلالية، مع محاولة نسب هذه الألفاظ إلى القبائل العربية المتنوعة قدر الإمكان، إضافة إلى دراسة مدى انتشار هذه الظواهر وأسباب اختلافها بين القبائل والمناطق. أظهرت النتائج أن غالبية هذه الاختلافات تعود إلى عمليات صوتية مثل الإبدال بين الحروف المتقاربة، أو تغيرات في البناء الصرفي، فضلاً عن ظاهرة القلب المكاني التي تعكس مرونة النظام اللغوي في العربية القديمة. وفي المقابل، حافظت الألفاظ على جوهرها الدلالي، مما يعكس عمق الترابط بين المفردات في النظام اللغوي العربي وتنوعها في آنٍ واحد.

الكلمات المفتاحية: غريب الحديث، ابن قتيبة، لهجات العرب، القلب المكاني، الإبدال الصوتي.

Abstract:

This study presents a linguistic and analytical examination of the various Arabic dialectal forms found in Ibn Qutaybah's "Gharib Al-Hadith". It focuses on identifying phonological, morphological, semantic, and dialectal phenomena within the lexical items that the author explicitly attributes to an "alternative language". Using a descriptive-analytical approach, the study aims to identify patterns of phonetic and semantic variation and, where possible, trace these lexical items to specific Arab tribes. It also investigates the extent of their distribution and the reasons behind their variation across regions and tribal groups. The findings reveal that most differences stem from phonological processes such as substitution between phonetically similar consonants, morphological modifications, and metathesis—highlighting the flexibility of the linguistic system in early Arabic. Despite these variations, the lexical items largely preserve their core meanings, reflecting the deep interconnection and diversity within the Arabic lexicon.

Keywords: Gharib Al-Hadith, Ibn Qutaybah, Arabic dialectology, metathesis, phonological substitution.

المقدمة:

إنّ العربيّة تُعَدّ من أخصب لغات البشر مادّةً، وأعمقها بناءً، وأدقّها تنظيمًا في مجالات النحو والصرف والدلالة. ومع ما أودع الله فيها من سعةٍ ومرونةٍ وغزارةٍ معجميّة، تبقى هذه اللغة الساميةُ الأصيلةُ ضاربةً بجذورها في أعماق التاريخ، قادرةً في الوقت نفسه على مواكبة تحوّلات الحياة وتطوّر وسائل التواصل الإنساني عبر العصور.

ولا ريب أنَّ العربية قد تعددت لهجاتها وتشعبت أنماطها باختلاف القبائل وتوزّعها الجغرافي، فاتفقت هذه اللهجات في البنى العامة، واختلفت في جملةٍ من الخصائص الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية؛ نتيجةً لتباين العوامل البيولوجية، والبيئية، والاجتماعية، والثقافية التي أثّرت في طرائق النطق والتعبير لدى العرب في جزيرتهم وخارجها.

وقد تركت هذه الظواهر اللهجية بصمتها جليّة في مدونات التراث، وانعكس أثرها في القراءات القرآنية، والروايات الحديثية، والنصوص الشعرية، فغدت جزءًا لا يتجزأ من فهم تلك النصوص واستيعاب أبعادها اللغوية والثقافية. ولا تزال آثار بعض هذه الخصائص ماثلة في لهجات العرب المعاصرة، بما يُتيح للدارس أن يردّها إلى أصولها القبلية والمعيارية، ويقف من خلالها على الامتدادات الصوتية والدلالية للهجات اليوم، من خلال استقراء مساراتها التاريخية وتطورها.

ومن شأن هذه الدراسة للهجات القديمة أن تعمّق الفهم للتحوّلات التي عرفتها اللغة عبر الزمن، وتكشف عن أبعادها الحضارية واللسانية، وتثري البحث العلمي في ميدان العربية التاريخية واللهجات المقارنة.

أهمية الموضوع:

تتبلور أهمية هذا الموضوع من زوايا متعددة، علمية ومنهجية، يمكن إجمالها فيما يأتي:

1. يُعدُّ كتاب غريب الحديث لابن قتيبة من نفائس ما صنّفت في علوم اللغة والحديث، إذ جمع فيه مؤلفه طائفةً من الألفاظ الغريبة الواردة في السنة النبوية، مفسّرًا إيّاها في ضوء سياقاتها الأصلية ومضامينها اللغوية، ما يجعله مادة ثرية صالحة للدراسة اللغوية المقارنة والتحليل الصوتي والدلالي.
2. تُسهم دراسة اللغات واللهجات في الكشف عن ملامح التعدد الصوتي والصرفي والدلالي في العربية القديمة، وهو ما يُعين على فهم مسارات نشأة العربية الفصحى وتطوّر بنيتها، في ضوء البيئات القبلية والجغرافية المتعددة.

3. إنَّ تتبّع الظواهر الصوتية – كالإبدال، والقلب المكاني، والإعلال – وتحليلها على وفق المعطيات اللسانيات الحديثة، يُسهم في وصل التراث بعلم اللغة الحديث، ويُمهّد لقراءةٍ علمية جديدة لنصوص التراث، قراءةٍ تستند إلى أدوات التحليل اللغوي الراهن، وتستنطق المعطى التراثي بما يكشف عمقه الصوتي والدلالي.

4. تفتح هذه الدراسة آفاقًا جديدة في مجال الربط بين الظواهر اللهجية القديمة واللهجات العربية المعاصرة، بما يدعم الدراسات الميدانية الحديثة في علم اللهجات، ويُسهم في تتبّع التطوّر التاريخي للأصوات والكلمات، وردّها إلى أصولها القبلية والمعيارية.

5. تُعَدُّ هذه الدراسة إضافة نوعية إلى المكتبة اللغوية، نظرًا لقلّة الدراسات المعاصرة التي تناولت لغات العرب الواردة في كتب الغريب تناولًا تحليليًا قائمًا على الموازنة والتأصيل، مما يبرز تفرّد هذا البحث ويسدّ ثغرة علمية لا تزال بحاجة إلى مزيد من العناية والدرس.

أسباب اختيار الموضوع:

1. السعي إلى استكشاف البنية اللهجية للغة العربية من خلال استقراء مصدرٍ تراثيٍّ أصيل، يُعَدّ من ذخائر العربية في توثيق لغاتها ولهجاتها المتعددة.

2. الحاجة الملحة إلى تحليل الظواهر الصوتية والصرفية التي تطرأ على الألفاظ، كما تجلّت في لهجات القبائل العربية المختلفة، وذلك في ضوء منهجٍ وصفيٍّ تحليليٍّ حديث.

3. بيان جهود الإمام ابن قتيبة في حفظ لغات العرب، والكشف عن منهجه الدقيق في عزو الألفاظ إلى قبائلها، وبيان أوجهها اللغوية المتعددة.

4. ندرة الدراسات المتخصصة التي درست هذه الظواهر اللهجية، والصوتية، والصرفية برؤية علمية تحليلية معاصرة تستند إلى أسس لسانيّة راسخة.

5. الإسهام في تأسيس قاعدة بيانات لغوية للهجات العرب، من خلال ما ورد في كتب الغريب، تكون نواةً يمكن الإفادة منها في صناعة المعاجم اللغوية الحديثة والموسوعات اللسانية التخصصية.

منهج البحث:

- اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي للألفاظ التي قال فيها ابن قتيبة وفيها لغة أخرى.
- البحث عن القبيلة التي تقول هذه اللغات مع الوقوف على حكم اللغويين فيها، وما طرأ عليها من تغيير من الناحية الصوتية أو الصياغية أو الدلالية.

- الموازنة بين هذه الألفاظ ونظيرها في اللغات الأخرى.
- ترتيب الكلمات المدروسة ترتيبًا ألفبائيًا.
- الالتزام بعلامات الترقيم وضبط ما يُشكل من الكلمات.
- خدمة البحث بفهرست تسهّل الاستفادة منه، حسب ما سبق ذكره.

هيكل الدراسة:

تتكون هذه الدراسة من تمهيد وثلاثة مباحث، تتبعها خاتمة بأهم النتائج والتوصيات، وفق الهيكل الآتي:

1. **التمهيد:** وفيه بيان لمفهوم اللغة، ومصطلح "اللغة" عند ابن قتيبة، وأهمية دراسة لغات العرب من الناحية الصوتية واللهجية.
2. **المبحث الأول:** ما ورد في إبدال الحركات وتحريك الساكن، ويشمل أمثلة توضّح اختلاف اللهجات في هذا الجانب.
3. **المبحث الثاني:** ما ورد في إبدال الحروف، مع تحليلٍ صوتيٍّ للهجات المختلفة في إبدال بعض الأصوات.
4. **المبحث الثالث:** ما ورد في القلب المكاني، مع بيان علاقته بالاشتقاق الكبير وتطبيقاته في ألفاظ غريب الحديث.
5. **الخاتمة:** وفيها أبرز النتائج التي توصل إليها البحث، والتوصيات المقترحة لمواصلة البحث في هذا الميدان.

التمهيد: تعريف اللغة وأهمية دراسة لغات العرب

أولا: تعريف اللغة:

يعرّف ابن جني اللغة بأنها مجموعة من الأصوات التي يستخدمها كل قوم للتعبير عن أغراضهم، ويُعد هذا التعريف من أكثر التعريفات شمولاً وإيجازاً، إذ يركز على الركيزتين الأساسيتين لأي نظام لغوي: المادة الصوتية والمعنى (ابن جني، 2012). فقد جعل مادّة اللغة أصواتًا منطوقة، وهدفها الأساسي هو التواصل والتفاهم بين أفراد المجتمع. ومن الجدير بالذكر أن أغلب التعريفات اللغوية الحديثة تستند في مضمونها إلى هذا التعريف الأصيل، وإن اختلفت في تفاصيلها.

على سبيل المثال، يعرف بعض علماء اللغة المعاصرين اللغة بأنها نظام من الرموز الصوتية التي يستخدمها البشر في التواصل، وهو تعريف لا يخرج في جوهره عما حدده ابن جني، لكنه يضيف بعدًا تنظيميًا يُظهر اللغة كنظام متكامل من العلامات المرتبطة (البركاوي، 2003).

وهكذا، تتفق معظم التعريفات على الدور المحوري للصوت ووظيفة التواصل في اللغة، ما يجعل تعريف ابن جني مرجعًا أساسيًا لا يزال يحتفظ بأهميته في الدراسات اللغوية المعاصرة.

ثانياً: مفهوم اللغة عند ابن قتيبة:

من أولى الخطوات الأساسية التي يقتضيها هذا البحث هو توضيح المصطلحات الرئيسة، لا سيما لفظة «اللغة»، التي تستعمل في عنوان الدراسة بمعنى أضيق وأخصّ مما هو معمول به في الدراسات اللسانية الحديثة. ففي تراث العرب الأوائل، وعلى وجه الخصوص عند ابن جني، تُعد «اللغة» مرادفًا لـ«اللسان»؛ أي الأداة التي يُعبّر بها القوم عن كلامهم وأصواتهم، وهو نفس المعنى الذي ورد في القرآن الكريم، حيث يقول تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (سورة الشورى: 7)، ويقصد بـ«اللسان» هنا اللغة العربية المفهومة والواضحة كما جاءت في النصوص الدينية.

ومما يُلاحظ أنه في تلك العصور، كان مفهوم «اللغة» يُوازي في دلالته ما يُعرف اليوم في علم اللسانيات بـ«اللهجة»، وهو اصطلاح ليس وليد العصر الحديث، بل كان راسخًا في التراث اللغوي القديم. وقد استعمل العديد من علماء اللغة القدامى لفظ «اللهجة» ليعبروا به عن اللغة المنطوقة الخاصة بجماعة ما. فعلى سبيل المثال، يورد ابن السكيت في أحد نصوصه، قوله: "وتقول: هذا رجل بيّن اللهجة، واللَّهجة لغة"، ويورد أبو عبيد عن أبي زيد قول الحذّاقي: "الفصيح اللسان البيّن اللهجة" (ابن السكيت، 1987) (أبو عبيد، 1999).

أما في علم اللسانيات المعاصر، فإنّ «اللهجة» تُعرّف على أنها مجموعة من الخصائص اللغوية التي تميّز جماعة ناطقة في منطقة جغرافية أو بيئة اجتماعية محددة، وتشمل هذه الخصائص الفروقات الصوتية، والنحوية، والصرفية التي يمكن ملاحظتها في نطق الكلمات، مما يجعل اللهجات مظاهر أساسية للتنوّع الداخلي في اللغة الواحدة (Crystal, 2008). ويُشير هذا الفهم الحديث إلى أن اللهجة ليست مجرد كلام عشوائي، بل منظومة منظمة تُعبّر عن الهوية والتنوع الثقافي بين المتكلمين.

وبناءً على ما سبق، فإن هذا البحث يتبنّى المفهوم التقليدي الذي أورده ابن قتيبة، والذي يجعل مصطلح «اللغة» قريبًا من دلالة «اللهجة» في الدراسات الحديثة، مع الأخذ في الاعتبار السياق التاريخي واللغوي الذي ورد فيه هذا المصطلح.

ثالثاً: أهمية دراسة لغات العرب:

لخص الدكتور رمضان عبد التواب مجموعة من الجوانب الجوهرية التي تبرز أهمية دراسة اللهجات العربية، والتي يمكن تلخيصها في عدد من النقاط المحورية. أولها أن دراسة اللهجات تسهم بشكل كبير في الكشف عن أصول القراءات القرآنية المتنوعة، إذ إنّ هذه القراءات في حقيقتها تتأسس على اختلافات اللهجات العربية وتنوّعها في المستويات الصوتية والصرفية والدلالية. هذا التنوع واللهجات المتعددة ساعد في بقاء القراءات القرآنية المختلفة، التي تُعتبر توثيقًا حيًا للتنوع اللغوي في العصر الإسلامي الأول (عبد التواب، 1994).

إضافة إلى ذلك، تساعد دراسة اللهجات الباحثين في الإجابة عن سؤال أساسي في تاريخ اللغة العربية: هل الفصحى هي نتاج امتزاج لهجات متعددة أم أنها تمثّل لهجة واحدة محددة تنتمي لقبيلة معينة؟ هذا السؤال يفتح بابًا واسعًا لفهم تطوّر اللغة العربية وتاريخها، ويعزز الفهم العميق للعلاقات بين لهجات العرب في العصور القديمة والحديثة (عبد التواب، 1994).

من ناحية أخرى، توفر الدراسات اللهجية أدوات مهمة لتتبع أصول اللهجات العربية المعاصرة المنتشرة في مناطق العالم العربي المختلفة، مما يساعد في إرجاع هذه اللهجات إلى جذورها القديمة. وهذا يوطّد الصلة بين تاريخ اللغة العربية وحاضرها، ويُظهر كيف أنّ اللهجات الحديثة ما هي إلا امتدادات وتحوّلات طبيعية لتلك اللهجات القديمة، وهو ما يؤكد وحدة اللغة العربية رغم تعدد مظاهرها وتنوعها (عبد التواب، 1994).

المبحث الأول: ما جاءت في إبدال الحركة، وتحريك الساكن، وفكّ الإدغام

أولاً: السِّنُّوت لغة في السَّنُّوت.

يُشير ابن قتيبة في أحد مواضع غريب الحديث إلى اختلاف لفظي حول كلمة "السَّنُّوت"، إذ ينقل أن من العرب من يلفظها بـ"السَّنُّوت"، ومنهم من يقول "السِّنُّوت"، ويؤكد على ورودها في لغتين مختلفتين ضمن المصادر اللغوية القديمة (ابن قتيبة، 1977). وقد تناول العلماء هذه المفردة بتفصيلٍ دلاليّ، فذهبوا إلى أن معناها يتراوح بين ثلاثة تفسيرات رئيسة، وهي: العسل، والرُّبّ، والكمون (الأنباري، 1992) (ابن الأثير، 1979).

وقد نوّه ابن الأثير إلى ورود الكلمة بصيغتين صوتيتين مختلفتين: "السَّنُّوت" و"السُّنُّوت" بضم السين، في حين اقتصر بعض اللغويين الآخرين على ذكر الصيغتين بفتح السين أو كسرها فقط (ابن منظور، 1414هـ). وتجدر الإشارة إلى أن الباحث لم يجد، في عدد من المصادر المعجمية التي وقف عليها، ذكراً لصيغة "السِّنُّوت" بالكسر، مما يرجّح ندرة استعمالها أو محدودية انتشارها

في نصوص التراث. وقد أجمعت كثير من المصادر اللغوية الموثوقة على أن "السَّنُّوت" بفتح السين وتضعيف النون هي الصيغة الأفصح من بين الصيغ الأخرى (ابن منظور، 1414هـ).

ويمثل هذا التنوع في ضبط الحركات الصوتية نموذجًا من الظواهر اللغوية المعروفة في العربية القديمة، وتحديدًا ما يُعرف باختلاف الحركات أو إبدالها، وهي من السمات التي تميّزت بها لهجات العرب، وظهرت بوضوح في أبنية الأفعال وتصريفاتها، وكذلك في الأسماء وما يلحق بها من تغيّر صوتي أو نحوي، ما يعكس التنوّع الفعلي في الأداء اللغوي عند القبائل المختلفة.

ثانياً: الصَالِبُ، والصَلَبُ لغتان في الصُّلْب

ينقل ابن قتيبة في غريب الحديث قولًا متعلقًا بلفظ "صالب"، إذ يقول: "وقوله تنقل من صالب، يعني الصُّلْب، ولم أسمعه بهذه اللغة إلا في هذا الحديث، وفيه لغة أخرى: صَلَب، ومثله في التقدير: سَقَم وسُقْم" (ابن قتيبة، 1977: 1/ 134). ويُفهم من هذا النقل أن ابن قتيبة رصد وجود تنويعات لغوية في نطق كلمة "الصُّلْب"، وأشار إلى أن "صالب" صيغة نادرة لم يقف عليها إلا في هذا الموضع.

وقد اتفق العلماء على أن معنى "صالب" في هذا السياق هو "الصُّلْب"، وهو المفهوم المتداول للكلمة في اللغة العربية، ورُويت الأبيات الشعرية التي وردت فيها هذه اللفظة على هذا الأساس (ابن منظور، 1414هـ). وذكر أهل اللغة أن لكلمة "الصُّلْب" ثلاث صيغ صوتية شائعة في الاستعمال العربي، وهي: الصُّلْب بضم الصاد وتسكين اللام، والصُّلُب بضم الصاد واللام، والصَّلَب بفتح الصاد وتسكين اللام، وكلها وردت في استعمالات العرب (ابن سيده، 2000) (الأزهري، 2001). وقد أُضيفت إليها صيغة "صالب"، إلا أن أغلب المعاجم تحكم عليها بالندرة، بل إن بعضها لم يذكرها إلا في سياق هذا الحديث تحديدًا، مما يدل على قلة تداولها.

ويرى بعض الباحثين أن هذه الصيغة قد تكون من نحت العباس بن عبد المطلب، حين أنشد قصيدته في مدح النبي ﷺ وارتجل هذا اللفظ على غير المعتاد، فجاء به على هيئة اسم فاعل في موضع الفعل أو الاسم المجرد. ولا يُستغرب هذا النوع من الصوغ الشعري، إذ إن العرب أجازوا في الشعر ما ضيّقوا استعماله في النثر، كما أن الارتجال الشعري عندهم كان سلوكًا أدبيًا مألوفًا، لا يُعد من قبيل الإحداث في اللغة، بل يُعبر عن طاقة الشاعر في التجديد ضمن حدود الذوق العربي المألوف.

ثالثاً: القَصُّ لغة في القَصَص

ينقل ابن قتيبة في غريب الحديث أحد الفروق اللهجية بين أهل الحجاز وغيرهم في لفظ "قَصّ" فيقول: "وأراه: قَصَص زوره، وهو وسط الصدر. وفيه لغة أخرى: قَصّ، وهو المستعمل في

الكلام، فأما قَصَص فإنه لأهل الحجاز" (ابن قتيبة، 1977: 242). وتُعد هذه الملاحظة مثالًا دقيقًا على منهج ابن قتيبة في عزو اللغات، حيث يغلب على طريقته إسناد اللهجات النادرة إلى مواطنها وقبائلها، بينما يترك اللهجات الشائعة دون عزوٍ، لاشتهارها واستقرارها على ألسنة العرب.

وبتحليل الأصل الصرفي للكلمتين "قَصّ" و"قَصَص"، نجد أن أصل المادة هو "قَصَصٌ"، الذي اجتمع فيه حرفان متماثلان (الصادان)، وقد جرى على هذه الصيغة الإعلال الصوتي المعروف في العربية، حيث حُذف أحد الحرفين المثلين وأُدغم الثاني، فنشأت الصيغة "قَصّ" بالتشديد، على وفق القياس الصوتي القياسي الذي تسلكه العربية في مثل هذه التراكيب لتيسير النطق وتقليل الجهد الصوتي (ابن جني، 2012).

غير أن لهجة أهل الحجاز اتخذت مسارًا مغايرًا، إذ تميزت عن غيرها بميلها إلى فكّ الإدغام في المواطن التي يُدمج فيها المثلان عادة، وهو ما يُلاحظ في أفعال ثلاثية مضعّفة، كقولهم "يردِّد" و"اردُد" من "ردّ"، و"يمدِّد" و"امدد" من "مدّ"، وهو ما لا يشيع عند سائر العرب (ابن منظور، 1414هـ) (السيوطي، 1998). هذا الاتجاه إلى فكّ الإدغام يعكس ظاهرة لهجية صوتية مستقرة عند الحجازيين، يمكن عدّها من العلامات الفارقة في لهجتهم.

وبناءً على ما سبق، فإن الصيغة الشائعة بين جمهور العرب كانت "القَصّ" بالتشديد، لما فيها من تقليل للتكرار الصوتي وتحقيق للقياس الصرفي، بينما بقيت "قَصَص" صيغة محلية محصورة في نطاق جغرافي ضيق، تمثل انفرادًا لهجيًا لا يُناقض القياس، ولكنه لا يعبر عن الاستخدام الشائع أو المعتمد في عموم العرب.

المبحث الثاني: ما جاءت في إبدال الحروف:

التمهيد:

تُعدّ ظاهرة الإبدال الصوتي في اللغة العربية من أبرز مظاهر التنوع اللهجي، وهي تقوم على إحلال صوتٍ (حرف) مكان صوت آخر في الكلمة نفسها، دون أن يصاحب هذا التبديل تغير في البنية الصرفية أو يكون ناتجًا عن قاعدة اشتقاقية. ويقع هذا الإبدال غالبًا في الموقع ذاته الذي كان يشغله الحرف الأصلي، مما يجعل البنية النحوية للكلمة في الغالب محافظة على شكلها، مع تغيّر صوتي محدود (ابن جني، 2012).

ويُعزى هذا الإبدال في كثير من الأحيان إلى العلاقة الصوتية التي تربط بين الحرفين المتناوبين، كأن يكونا متقاربين في مخرجهما الصوتي أو بينهما تشابه في الصفات الصوتية، مثل الهمس أو الجهر أو الشدة أو الرخاوة. ومن الأمثلة الدالة على ذلك، ما يرد من اختلاف في نطق كلمة واحدة بين قبيلتين؛ فقبيلة تنطق "مدح" بالحاء، وأخرى تقول "مده" بالهاء، وهذا النوع من

التغيير الصوتي يُعرف في اللغة بـ"الإبدال"، ويُعد من المسموعات، لا من المقيسات المطردة، أي أنه لا يُحكم عليه بقياس عام، بل يؤخذ كما ورد عن أهل اللغة، ويرتبط غالبًا ببيئات قبلية معينة (ابن قتيبة، 1977) (عبد التواب، 1994).

وتكشف هذه الظاهرة عن مرونة النظام الصوتي في العربية القديمة، وقدرته على التفاعل مع المتغيرات اللهجية دون الإخلال بالمعنى أو التشويش على مقصود المتكلم. فهي لا تدل على فساد في اللغة أو انحراف عن الأصل، بل تعبّر عن التنوع الطبيعي الذي عرفته العربية في بيئاتها المختلفة، وهو تنوعٌ يعزّز ثراءها ويمنحها قدرة على التوسع والاستيعاب. ومن الجدير بالذكر أن ظاهرة الإبدال قد تشمل معظم حروف المعجم، وتُعد ملمحًا شائعًا في الأبنية اللفظية التي تناقلتها العرب، وإن كانت غير شائعة في الاستعمال الكتابي المعياري لاحقًا (ابن منظور، 1414هـ).

أولاً: التَّسْمِيت لغة في التَّشْمِيت

يروي ابن قتيبة في غريب الحديث لفظًا من الألفاظ الواردة في كلام النبي ﷺ، حيث يقول: "جاء في الحديث: سمّوا ودنوا وسمّتوا، هذا في الطعام، ومنه تسميت العاطس، إنما هو الدعاء له، وفيه لغة أخرى: التشميت بالشين المعجمة، وهي المستعملة" (ابن قتيبة، 1977: 119). ويشير هذا النقل إلى وجود صورتين صوتيتين للكلمة: إحداهما "التسميت" بالسين، والأخرى "التشميت" بالشين، وكلتاهما تدوران حول معنى الدعاء بالبركة أو الرحمة، سواء في حال العطاس أو الطعام.

وقد ذكر عدد من اللغويين أن كلاً من "التسميت" و"التشميت" يحمل دلالة ذكر اسم الله على الشيء، أي الدعاء بالخير أو الرحمة (ابن منظور، 1414هـ). وتُعدّ هذه الثنائية في النطق نموذجًا واضحًا لظاهرة الإبدال الصوتي بين حرفين متقاربين في المخرج والصفات، وهما: السين والشين، إذ يشتركان في كونهما من حروف الصفير، ويصدران من منطقة واحدة تقريبًا من الفم، مما يجعل التبادل بينهما في بعض اللهجات أمرًا مألوفًا لا يُعدّ لحنًا أو خطأ لغويًا.

أما من حيث الاستخدام، فقد اختلف العلماء في ترجيح إحدى اللغتين على الأخرى، فذهب أبو عبيدة وأبو عبيد القاسم بن سلام إلى أن "التشميت" هو الأشهر والأوسع تداولًا في كلام العرب، وهو ما يُوافق رأي ابن قتيبة الذي اعتبرها "المستعملة" (انظر: أبو عبيد، 1964؛ أبو عبيدة، كما في السيوطي، 1998). في المقابل، رجّح ثعلب (وهو من كبار أئمة اللغة) أن "التسميت" هي الأفصح والأولى بالاستعمال، حيث قال: "الاختيار بالسين" (السيوطي، 1998: 321).

وتعكس هذه الظاهرة مقدار التداخل اللهجي في استعمال الألفاظ، كما تبرز مرونة العربية في استيعاب هذا التعدد دون أن يؤدي إلى خلل في المعنى. وهي من الأمثلة الدالة على أن

الإبدال الصوتي – وإن كان غير مطّرد – فإنه لا ينفكّ عن الأسباب الصوتية الطبيعية التي تبرّره في السياق التداولي.

ثانياً: الزُّوارة لغة في الزِّيَارَة

أشار ابن قتيبة إلى اختلاف في اللفظ، حيث قال: "وروى الكسائي الزيارة والزُوارة، وقال غيره: الفتاحة، وهي المحاكمة، والفتاح الحاكم" (ابن قتيبة، 1977: 142). وقد نقلت كتب اللغة والمعاجم رواية "الزُوارة" عن يعقوب بن السكيت نقلًا عن الكسائي، وذُكر إلى جانبها ألفاظ أخرى فيها اختلاف في ضبط أولها، مثل: "البِشارة" و"البُشارة" (ابن منظور، 1414هـ) (الزمخشري، 1984).

وقد أدرج ابن سيده هذا النوع من الألفاظ ضمن باب "الفِعالة" و"الفُعالة" المتعاقبين في المعنى (ابن سيده، 2000). وتُشتق "الزُوارة" على وزن "فُعالة"، وأصل الواو فيها ياء، وقد قُلبت لملاءمة الضم على الزاي، وهو تغيير صوتي مألوف في الأبنية العربية (عبد التواب، 1994).

ثالثاً: الشَّثَل لغة في الشَّثَن

قال ابن قتيبة: "وقوله شَثَنَ الكفّين والقدمين يريد أنهما إلى الغِلظ والقِصر، وفيه لغة أخرى: شَثَلَ" (ابن قتيبة، 1977: 115). وقد ورد كلٌّ من "الشثن" و"الشثل" في وصف الغِلظة والخشونة، فيقال: رجل شثل الأصابع، أي غليظها، وتُوصف القدم بأنها "شثلة" إذا كانت كثيرة اللحم، شديدة التركيب. وقد ذكر يعقوب وأبو عبيد أن "شثل" لغة مُبدَلة عن "شثن"، بإبدال اللام من النون، وهو من ظواهر الإبدال الصوتي بين الحروف المتقاربة في المخرج (أبو عبيد، 1981) (يعقوب، كما في ابن منظور، 1414هـ) (الجوهري، 1987). ويؤيد هذا ما أورده اللغويون من نظائر لهذه الظاهرة، كقولهم: أصيلان وأصيلال، ولعلّ ولعنّ، والصيدناني والصيدلاني (عبد التواب، 1994).

رابعاً: العَكْصُ لغة في العَقْص

أورد ابن قتيبة أن "العَقص: السيء الخُلق المتلوي العَسر، وفيه لغة أخرى: عَكص" (ابن قتيبة، 1977: 134). وتدلّ كلٌّ من "العقص" و"العكص" على سوء الخلق، وقد وقع بينهما إبدال صوتي بين القاف والكاف، تبعًا لاختلاف النطق بين القبائل. ويُحتمل أن ما رواه أبو عبيد عن الفراء، في قوله: "رجل عكص عقص"، من باب الإتباع، على غرار تراكيب لغوية أخرى مثل: "شيطان ليطان" و"حسن بسن" (أبو عبيد، 1981) (ابن جني، 2012).

وقد تطوّر كلّ من اللفظين إلى دلالة قائمة بذاتها في لسان العرب، فصار "عقص" و"عكص" لغتين قائمتين لمعنى واحد، نتيجة تداول كلٍ منهما في بيئات لغوية متباعدة. ويرجّح بعض اللغويين أن

الأصل في الكلمة هو "عكص"، كما ورد عند الأزهري في معنى سوء الخلق، وجاء في بعض المصادر أن "الكعص" يدل على اللؤم (ابن الأزهري، 2001: 4/112). وبالنظر إلى تقاليب "عقص"، نجد منها ما هو مستعمل في العربية، كـ"قَعَص" بمعنى الموت أو المرض، و"صَعِق" للدلالة على الصيحة المُفزعة، و"قَصَع" الذي يُشير إلى الضم أو الهشم (ابن منظور، 1414هـ) (ابن فارس، 1979).

خامساً: اليَرَنْدَج لغة في الأَرَنْدَج

أورد ابن قتيبة أن لفظ "الأرندج" يُطلق على الجلود السود، مشيرًا إلى وجود لغة أخرى تُنطق "يرندج" (ابن قتيبة، 1977). وهذان اللفظان معرّبان عن الأصل الفارسي "رنده"، وقد خضعا لتحوير صوتي عند دخولهما العربية، تمثّل في زيادة الهمزة في أحدهما والياء في الآخر، مما ألحقهما بأوزان عربية مثل "أفعل" و"يفعل"، وهي أوزان قريبة من "فعلل"، كما لاحظه الأزهري عند تناوله للكلمة في باب الرباعي (ابن الأزهري، 2001).

غير أن ابن السِّكِّيت أنكر صيغة "الرندج" وأعرب عن عدم قبولها، ربما لمخالفتها لسياقات التعريب العربي المألوف (ابن السكيت، 1987). ويُذكر أن العرب حينما يعربون الألفاظ الأعجمية، يخضعونها لنظامهم الصوتي والصرفي بما يتوافق مع أوزانهم ومقاييسهم، ويشير سيبويه إلى هذه الظاهرة موضحًا أن العرب قد يُدخلون أصواتًا أعجمية في أوزان لغتهم إذا أمكنهم ذلك، أو يتركونها على حالها إذا لم تُستسغ (سيبويه، 1988).

ويبدو أن كلا اللفظين "أرندج" و"يرندج" قد نشأ عن تعريب الكلمة الفارسية، دون أن يكون أحدهما فرعًا للآخر، بل اتجهت بعض القبائل إلى إدخال الهمزة وأخرى إلى إدخال الياء، وهما من الأصوات التي يكثر تبادلها في ألفاظ العرب، سواءً بالقياس أو بالسماع. وقد ورد أيضًا وجه ثالث للكلمة، هو "إرندج"، بكسر الهمزة، مما يؤكد تنوّع النطق الناتج عن طبيعة التعريب وتفاوت اللهجات (ابن منظور، 1414هـ).

المبحث الثالث: ما جاءت في القلب المكاني:

أولاً: القلب المكاني

في علم اللغة، يُعرف "القلب المكاني" بأنه تبديل مواضع بعض الحروف داخل الكلمة الواحدة، بحيث يُقدم حرف ويُؤخر آخر، مع بقاء المعنى الأصلي دون تحوير أو خلل في الدلالة. تمثل هذه الظاهرة جانبًا من مرونة اللغة العربية، وقدرتها على التنوع في تشكيل الألفاظ، مع حفاظها على ثبات المعنى (ابن قتيبة، 1982). يظهر القلب المكاني في سياقات متعددة؛ منها الكلام الفصيح، اختلاف اللهجات، الروايات القرآنية، والأشعار، وغالبًا ما يكون ناتجًا عن تقارب في الصفات الصوتية أو التوازن الوزني بين الحروف المتبادلة (الجوهري، 1998).

أما "الاشتقاق الكبير" فيُعرف بأنه اشتقاق كلمة من أخرى بحيث تجمع بينهما علاقة دلالية واضحة، ويتفقان في جذر الحروف الأصلية، دون اشتراط حفظ ترتيب الحروف نفسه، بخلاف الاشتقاق الصغير. فالأساس في الاشتقاق الكبير هو وحدة الجذر ومادة الحروف، وليس النمط البنائي للكلمة، مما يبرز الترابط اللغوي العميق والقدرة الفائقة للغة على توليد المفردات عبر نظام اشتقاقي مرن (ابن مالك، 2003).

من الأمثلة على ذلك اللفظ "حججج"، وهو من الأفعال الرباعية على وزن "فعلل"، وأصله فعل ثنائي مكرر، ومن أوزانه المشابهة "جججج" و"جخجخ". قال ابن قتيبة في معرض شرحه: "قوله مجحمة أي يُقال جججت عن الأمر أي كففت، وفيه لغة أخرى: حججت بتقديم الحاء على الجيم وهو من المقلوب" (ابن قتيبة، 1982). ويُفهم من ذلك أن تغير ترتيب الحروف بين "حججج" و"جججج" لا يؤثر على المعنى، الذي يرتبط بالتراجع أو الكفّ عن الإقدام، كما يوضح الجوهري بقوله إن الحَجحَجة تعني النكوص أو التراجع، فيقال "حَجحج الرجل" عند التردد في الكلام أو التراجع عن قول ما (الجوهري، 1998).

ويظهر في المعاجم مثل المحكم، دلالة مشابهة للفظ "جججج عنه" بمعنى تأخر أو كفّ، ويُعد هذا من المقلوبات التي أوردها ابن قتيبة، مما يؤكد تداخل الألفاظ وانسجام المعاني على الرغم من اختلاف ترتيب الحروف (المحقق، 2005). ولا توجد دلائل واضحة على أن هذه اللغة خاصة بقبيلة معينة، مما يشير إلى شيوعها ضمن الموروث اللغوي العام.

ثانياً: غَمْذَر لغة في غَذْرَم

قال ابن قتيبة إنّ "الغذرمة" تعني الكيل مع زيادة على الوافاة، ويُقال "غذرم له يغذرم"، وفي لغة أخرى يُقال "غمذر يغمذر" وهو مقلوب عنها (ابن قتيبة، 1982). يوضح الجوهري أن "غذرمت الشيء وغذمرته" تعني بيعه جزافًا، و"غذارم" تعني الكيل الجزاف (الجوهري، 1998). كما يذكر أبو منصور الأزهري أن بعض العرب يقولون "غمذر غمذرة" بمعنى "غذرم" عند الكيل والإكثار (الأزهري، 1992). ويفيد ابن منظور أن الأصل في الكلمة "غذرم"، بينما "غمذر" فرع منها، ومن المحتمل أن يكون هذا القلب المكاني نتيجة انتقال اللفظ من قبيلة تقول "غذمر" إلى أخرى نطقت "غمذر" (ابن منظور، 1994).

الثالث: الصُبْر لغة في البُصْر

قال ابن قتيبة إنّ "البصر" تعني الجانب والحرف، ويريد بذلك غلظة السماء، وفي لغة أخرى "الصبر"، وغالبًا ما يُستخدم "الصبر" في الكلام للدلالة على الحروف وجوانبها (ابن قتيبة، 1982). ويشبه ذلك زوج الكلمات "جبذ" و"جذب"، حيث على رأي ابن جني لا يُعدّان من قبيل القلب

المكاني، رغم تقديم وتأخير الحروف فيهما، إذ لم يثبت لأحدهما أصالة دون الآخر (ابن جني، 1966). ويرى ابن جني أنه إذا وُجدت كلمتان بينهما تقديم وتأخير في ترتيب الحروف، وكان بالإمكان اعتبار كل منهما أصلًا مستقلًا دون اعتبار الآخر فرعًا، فيجب الحكم بأصالتهما معًا، وهذا هو القياس الصحيح الذي لا يُعدل عنه. أما إذا لم يُمكن ذلك دلاليًا أو لغويًا، فلا بد من ترجيح أحدهما على الآخر واعتباره الأصل، والآخر فرعًا مقلوبًا عنه، مع مراعاة الأقرب إلى الأصل في الاستعمال أو المعنى أو القياس (ابن جني، 1966). ومن الأمثلة التي ذكرها في هذا السياق: "جذب" و"جبذ"، حيث يتصرفان تصرفًا واحدًا ولا يظهر بينهما ما يدل على الأصالة أو الفرعية (ابن جني، 1966).

الخاتمة:

أسفر البحث عن نتائج مهمة، يمكن تلخيصها فيما يلي:

1. رغم ميل ابن قتيبة إلى الإيجاز في عزو الألفاظ إلى القبائل، إلا أنه أشار إلى تنوع واسع في اللهجات العربية واختلافات واضحة في النطق والاستعمال، مما يعكس ثراء التراث الصوتي واللهجي للعربية.
2. تكررت ظاهرة الإبدال بين الحروف والحركات في كثير من الألفاظ المدروسة، مما يدل على تأثير البيئة الصوتية واللهجات المحلية في تشكيل البنية اللفظية، ويبرز مرونة النظام الصوتي العربي القديم وقدرته على التكيف.
3. حافظت المعاني العامة على اتساقها رغم التغيرات الشكلية في الكلمات، مما يؤكد قدرة العربية على حفظ الأصل الدلالي.
4. بالرغم من قلة تكرار ظاهرة القلب المكاني، إلا أنها تفتح آفاقًا جديدة لدراسة ما يُعرف بالاشتقاق الكبير في اللغة العربية.
5. تثبت الدراسة أن الظواهر اللهجية ليست مجرد انحراف عن القواعد، بل هي تعبير عن حيوية اللغة وتفاعلها مع البيئات المختلفة.

وبناءً على ما سبق، توصي الدراسة بما يلي:

1. إجراء دراسات مقارنة للغات الواردة في كتب الغريب الأخرى، مثل "غريب الحديث" لأبي عبيد و"الغريبين" للهروي.
2. حث المراكز والمعاهد اللغوية على تبني مشاريع موسوعية لرصد لهجات العرب القديمة من خلال المصادر اللغوية والحديثية.

3. اعتماد كتب الغريب كمصادر رئيسية في تأليف المعاجم التاريخية للغة العربية.

4. تشجيع الباحثين على دراسة الأثر اللهجي في تباين الروايات الحديثية وتأثيره في التنوع اللغوي.

قائمة المراجع والمصادر:

- ابن الأثير، م. د. ب. م (1979): النهاية في غريب الحديث والأثر، ت: طاهر الزاوي، م. الطناحي، بيروت: المكتبة العلمية.
- ابن الجوزي، ع. ب. ع (1985): غريب الحديث، ت: عبد المعطي أمين القلعجي، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن السكيت، ي. ب. إ (1987): إصلاح المنطق، ت: محمد مرعب، أ. عبد الغفور عطار، بيروت: دار العلم للملايين.
- ابن السكيت، ي. ب. إ. (د.ت): الكنز اللغوي في اللسان العربي، ت: أوغست هفنر، القاهرة: مكتبة المتنبي.
- ابن سِيده، ع. ب. إ. (1996): المخصص، ت: خليل إبراهيم جفال، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- ابن سِيده، ع. ب. إ. (2000): المحكم والمحيط الأعظم، ت: عبد الحميد هنداوي، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن عياض، ع. ب. م. (د.ت): مشارق الأنوار على صحاح الآثار، بيروت: المكتبة العتيقة ودار التراث.
- ابن فارس، أ. ب. ز. (1979): معجم مقاييس اللغة، ت: عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الفكر.
- ابن قتيبة، ع. ب. م. (1964): غريب الحديث، ت: محمد عبد المعيد خان، حيدر آباد: مطبعة دائرة المعارف العثمانية.
- ابن قتيبة، ع. ب. م. (1977): غريب الحديث، ت: عبد الله الجبوري، بغداد: مطبعة العاني.
- ابن قطّاع الصقلي، ع. ب. ج. (1983): كتاب الأفعال، بيروت: عالم الكتب.
- ابن مالك، م. ب. ع. (د.ت): من ذخائر ابن مالك في اللغة: مسألة في الاشتقاق، ت: محمد المهدي عبد الحي عمار.

- ابن منظور، م. ب. م. (1994): لسان العرب، بيروت: دار صادر.
- ابن هشام، ج. د. ع. ب (1900): شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، القاهرة: مطبعة دار الطباعة الأميرية.
- الأزدي، ع. ب. ح (1989): المنتخب من غريب كلام العرب، ت: محمد بن أحمد العمري، مكة: جامعة أم القرى.
- الأزهري، م. ب. أ. (2001): تهذيب اللغة، ت: محمد عوض مرعب، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- الأنباري، أ. ب. م. ب. ق. (1992): الزاهر في معاني كلمات الناس، ت: حاتم صالح الضامن، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- البركاوي، ع. ع. ع. (2003): مدخل إلى علم اللغة الحديث، القاهرة: مطبعة الجريسي.
- الثمانيني، ع. ب. ت (1999): شرح التصريف، ت. إبراهيم البعيمي، الرياض: مكتبة الرشد.
- الجوهري، إ. ب. ح (1987): الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، ت: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت: دار العلم للملايين.
- الحلبي، ع. أ. ب. ع (1961): الإتباع، ت: عز الدين التنوخي، دمشق: مجمع اللغة العربية.
- الرازي، ز. د. م. ب. أ (1999): مختار الصحاح، ت: يوسف الشيخ محمد، بيروت– صيدا: المكتبة العصرية.
- السعدي، ع. ب. ج (1983): كتاب الأفعال، بيروت: عالم الكتب.
- سيبويه، ع. ب. ع :(1988): الكتاب، ت: عبد السلام محمد هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي.
- السيوطي، ج. د. ع. ر. (1998): المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ت: فؤاد علي منصور، بيروت: دار الكتب العلمية.
- الصاعدي، ع. ر. ب. ف. (2002): تداخل الأصول اللغوية وأثره في بناء المعجم، المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي، الجامعة الإسلامية.
- الفارابي، إ. ب. إ (2003): معجم ديوان الأدب، ت: أحمد مختار عمر، القاهرة: دار الشعب.

- قشاش، أ. ب. س. (د.ت): الإبدال في لغات الأزد: دراسة صوتية في ضوء علم اللغة الحديث.
- النجار، م. ع (2012): الخصائص، تأليف: عثمان بن جني، بيروت: عالم الكتب.
- الهروي، أ. ب. الق. (1415هـ–1417هـ): غريب الحديث، ت: صفوان عدنان داوودي، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، 26–27.
- الهروي، أ. ب. الق. (1999): الغريبين في القرآن والحديث، ت: أحمد فريد المزيدي، المملكة العربية السعودية: مكتبة نزار مصطفى الباز.
- الهروي، م. ب. ع. (1420هـ): إسفار الفصيح، ت: أحمد بن سعيد قشاش، المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي، الجامعة الإسلامية.